

الفصول الإسلامية في الأندلس

بقلم الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم

بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيته بقصة سياسته ، حتى انقاد له عصيهم وذلك له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته : ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لدماره ، مانعاً لحوزته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك هو الفتي كل الفتي لا يكذب مادحه ! »^(١)

وما كاد عبد الرحمن الداخل يستقر بقرطبة ، ويستقيم أمره بها حتى بنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة ، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار . ومنذ ذلك العهد بدأ فن العمارة يتلمس طريقه في الأبنية الدينية والمدنية ؛ وجامع قرطبة شاهد صدق على هذه الحركة الكبرى في البناء والتشييد ؛ إذ يشف عن مثل من أروع أمثلة العمارة الإسلامية بل العالمية في العصر الوسيط : ذلك أن عناصره المعمارية والزخرفية تؤلف البذور الأولى للفن الأندلسي المغربي ، وقد أخذت زخارفه تشع في المشرق والمغرب ، فأثرت في الزخرفة المسيحية والإسلامية على حد سواء ، وأوحت قبابه القائمة على هياكل بنائية من الضلوع المتقاطعة ابتكار القبوات القوطية ، التي انتشرت في العصر الأوربي الوسيط .

هذا هو العصر الأموي الذي نبت فيه الفن الإسلامي بالأندلس ، وما لبث أن ترعرع في العصور التالية حتى وصل إلى ذروة نضارته في عصر بني نصر ، ثم هاجر هذا الفن إلى المغرب بعد أن طُرد من بلاده التي وُلد فيها

ما كاد المسلمون يوطدون أقدامهم في الأندلس بعد الفتح ، ويخضعون هذه البلاد لسلطان الخلافة الأموية بدمشق — حتى انبعث بينهم الصراع القبلي الذي كان كامناً في نفوسهم ، وأصبحت الأندلس في عهد الولاة التابعين لخلافة دمشق مسرحاً للفتنة والفوضى ومرتعاً خصباً للاضطراب مدة ثلاث وأربعين سنة . وقد افتتح هذا العهد البغيض بمقتل الأمير عبد العزيز بن موسى ، وكان أبوه موسى بن نصير فاتح الأندلس قد استخلفه عليها بعد أن قفل إلى المشرق سنة ٩٥ للهجرة (٧١٣ م) ، وانتهى بتغلب الأمير عبد الرحمن بن معاوية المرواني المعروف بعبد الرحمن الداخل على سرير الملك بقرطبة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) .

ثم بدأ عصر بني أمية في الأندلس ويعتبر امتداداً لعصرهم في المشرق . ومؤسس هذه الأسرة في الأندلس هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي استطاع أن يفر إلى المغرب الأقصى ، ويعبر الزقاق^(١) إلى الأندلس ، واستطاع بفضل ما أوتي من ألمعية أن يؤسس ملكاً بعد فنائه ، وقد قال عنه أبو جعفر المنصور عدوه اللدود : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ؛ فالشأن في أمر فتي قريش الأحوزي الفذ في جميع شئونه ، وعدمه لأهله ونشبهه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مراقب همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها

(١) المقرئ : « ففتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » تحقيق

محيي الدين عبد الحميد ج ١ ص ٣١٠ .

(١) هكذا يسمى العرب مضيق جبل طارق .

العمد ونضار الخشب وخالص النحاس وصافي الحديد والرصاص بيع الإدبار»^(١).

وكذلك كان أمر قصور الزهراء التي شرع الخليفة عبد الرحمن الناصر في بنائها عام ٣٢٥ هـ (٩٣٦) ؛ إذ هدمها البربر في ٢٣ من ربيع الأول سنة ٤٠١ (٤ من نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، وذبحوا حاميتها . ويروى ابن أبي زرع كيف تهدمت قصور الموحدين بمراكش بعد انقضاء سلطانهم^(٢)

ويغلب على الظن في أسباب تخريب هذه القصور أن الإسلام يستهجن إضفاء معنى الأزلية على البناء ؛ فالدوام لله فقط ، وبناء قصور لها صفة الخلود أمر خارج عن الدين الإسلامي ، ويشف عن تحد للألوهية . وكان رجال الدين يترصدون الملوك ، وينتقدون كل أعمالهم ، وكان عبد الرحمن الناصر كلفاً بعمارة القصور عملاً بقوله :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان ؟
إن البناء إذا تعاضم قدره
أضحى يدل على عظيم الشأن^(٣)

وكان يلقي من زجر القاضي منذر بن سعيد البلوطي وتأنيبه ما يجعله يبكي ، وقد قال له يوماً : « فتاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، وهي دار القرار ومكان الجزاء » . ومضى في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته والإسراف في الإنفاق عليه بكل كلام نجزل وقول فصل .

وكان يحذره فجأة الموت ، ويدعوه إلى الزهد في

(١) ابن بسم الشنتريني « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » القسم الأول - المجلد الثاني ، القاهرة عام ١٩٤٢ ص ١١١-١١٢ .

(٢) ابن أبي زرع : « روض القرطاس » ج ٢ ص ١١٠ .

(٣) « نفح الطيب » ج ٢ ص ١١٠ .

على أثر الاسترداد المسيحي ، وقدر له أن يقضى فيه البقية الباقية من حياته حتى نصب معينه ، وذبل عوده ، وقضى عليه بالفناء ! .

ولا نود أن نطيل الحديث عن هذا الفن ، وإنما قصدنا أن ندرس منه ناحية جديدة بالبحث هي القصور التي بناها الخلفاء والملوك المسلمون في إسبانيا في عهد بني أمية ، وفي عهد ملوك الطوائف الذين ورثوا ملك الأمويين ، ثم في عهد دولتي البربر المرابطين والموحدين ، وفي عهد بني نصر الذين اختتم بهم الإسلام حكمه في الأندلس . وكان الأمراء والخلفاء يشيدون قصور الحكم بجوار المساجد الجامعة ، وكانوا يطلقون عليها اسم « دور الإمارة » . على أنهم كانوا يلتمسون الراحة في بعض الأحيان ، فكانوا يعمدون إلى بناء قصور للراحة واللهو بعيداً عن الحاضرة ؛ ليتمكنوا من الاستغراق في الترف ، والاستنامة إلى حياة اللهو والنعيم التي لا تتاح لهم في مقر الحكم بالحاضرة . وكانت هذه القصور تتخذ مظهراً عمرانياً شديد الشبه بالمدن الصغيرة ؛ فقد كانت تتألف من قصور الأمير وأفراد حاشيته وخاصته ، ومن متنزعات ومحال للوحش فسيحة ومسارح للطيور مظلة الشباك وأسواق وحمامات وفنادق ودور للصناعة ومساجد وغير ذلك . غير أن حياة هذه المدن الملكية كانت موقوتة ؛ فما أسرع ما كانت تنتهب وتسلب على أثر سقوط الأسرة الحاكمة ، كما حدث في قرطبة عندما تداعى سلطان الخلافة القرطبية ، فعم النهب والسلب ، وفي ذلك يقول ابن حيان : « . . . وانكدر بإثر وفاته ابن باشة هدام القصور ومبور المعمور ، وكان من التبجح في اللؤم ، والالتحاف للشؤم . مع دناءة الأصل والفرع وتنكب السداد ، وتقيّل الفساد - على ثبج عظيم ، ببده بادت قصور بني أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت أعلامهم المنيع ، قدّمه بن السقاء مدبر قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة ، فاغتدى عليها أعظم آفة ، وباع آلاتها من المرمر ومثمن



بقايا قصر الخلافة بمدينة الزهراء

الشام الأثرية لديه . وما زالت بعض آثار هذا القصر قائمة حتى وقتنا هذا .

وعندما ولي الأمير عبد الرحمن بن محمد الإمارة عام ٩١٢ م تلقب بألقاب الخلافة عام ٩٣٢ م لما التفت أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلاثمائة (٩٢٩ م) ، فتلقب بألقاب الخلافة ليحيى للخلافة ما كان لها من هيبة . فلما استفحل أمره ، ونالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهار ما نالته حتى بلغت مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه الأمم الأخرى - رأى أن يبني له قصراً يليق بجلال الخلافة وبهائها ، فبنى مدينة الزهراء على بعد خمسة أميال تقريباً غرب قرطبة على سفح جبل العروس .

ولقد أمدتنا المدونات التاريخية العربية بمعلومات قيمة عن بناء هذه المدينة الخلافية وعن الفترة القصيرة التي ازدهرت فيها ، وعم بها الرخاء ، ثم عن الأسباب التي أدت بها إلى الزوال ، فانحدرت سريعاً إلى القبر ، وكانت ما تزال في مقتبل عمرها ، ويروى المؤرخون قصة بناء هذه المدينة فيما يشبه الأساطير ، ويعزون تسميتها هكذا إلى جارية أغرم بها عبد الرحمن الناصر واسمها زهراء ، ويعلمون ذلك بوجود تماثلها على أحد أبواب



بقايا من قصور الزهراء

هذه الدار الفانية ، ويحضره على اعتزالها والرفض لها ، والتدب إلى الإغراض ، عنها والاقصاء عن طلب اللذات ونهى النفس عن اتباع هواها . وكان الخليفة في كل مرة يضج بالبكاء ، ويندم على ما سلف له من فرطه (١) .

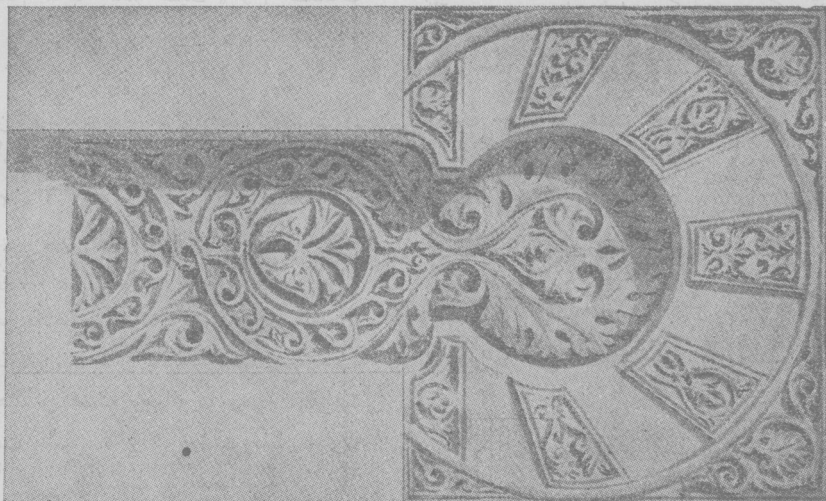
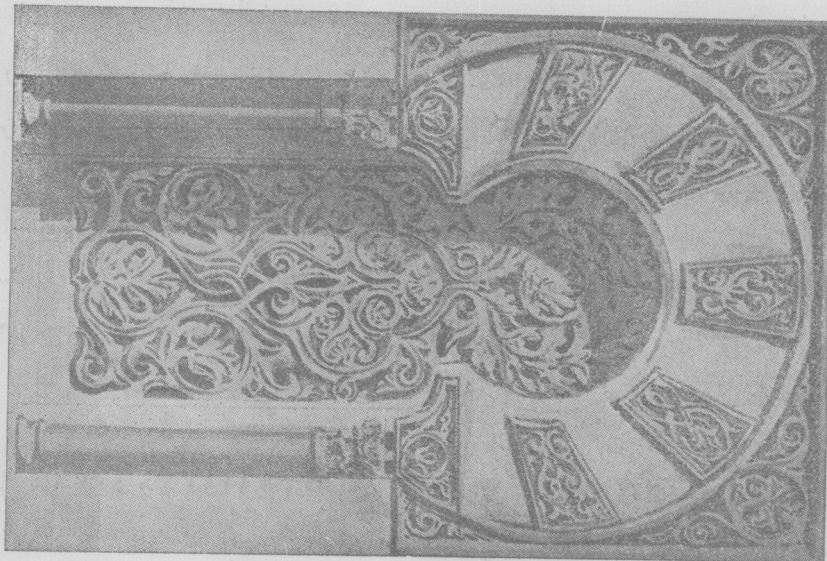
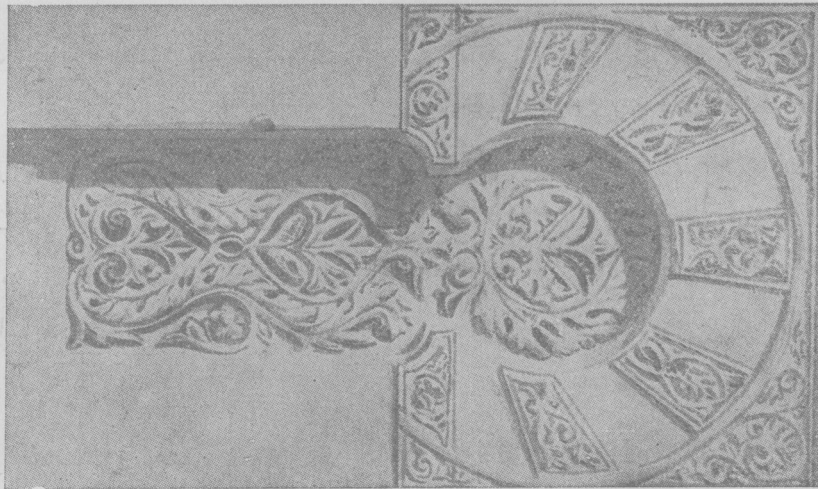
* * *

قصور بنى أمية بقرطبة :

ما كاد الأمير عبد الرحمن بن معاوية يستقر بقرطبة ، ويثبت قدمه في الملك - حتى عمد إلى تجديد ما طمس لبنى أمية بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، فبنى الجامع بقرطبة ، وبنى مساجد أخرى ، كما أدار السور بقرطبة بعد أن هدمه السمع بن مالك الخولاني صاحب الأندلس ، واستعمل حجره في ترميم قنطرة قرطبة بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ (٧١٩) .

وقد شيد بنو أمية قصر الدمشق بقرطبة ، وهو قصر شيدوه بالصفاح والعمد ، وأبدع بناؤه وتمت ساحاته وفناؤه ، وحكوا به قصرهم بالمشرق ، كما بنى الأمير عبد الرحمن الداخل منية الرصافة شمال قرطبة لنزهه وسكنه أكثر أوقاته ، فاتخذ بها قصراً حسناً ودحاً جناناً واسعة ، ونقل إليه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وسماه باسم رصافة جده هشام بأرض

(١) المرجع نفسه ص ١٠٦ - ١٠٧ .



تفصيلات الزخارف من فناء قصر الحليفة

(١)

(٢)

١٠١٠
رأى كبرية لمسة
لمسة د رالفة
والسفل نرسمها
! زينة ملو آيا
د رالفة نال
نقشها ملو
ر زينة لهنيسة

لينة م تالو
و نرسمها
ت دلق كال
ولنه دالو
ولنه رة
نالبون لجنسها
نرسمها ملو
تيلو رة
ر د رة
ر د رة
ر د رة

ر د رة
ر د رة
ر د رة
ر د رة
ر د رة
ر د رة
ر د رة
ر د رة
ر د رة
ر د رة

Volpquez Baco
Volpquez Baco

المدينة . وللقارئ أن يطالع تلك القصة في كتب التاريخ^(١) .

وحسبنا أن نذكر هنا أنه شيد بها قصوراً كثيرة: منها، قصر المؤنس ، وقصر الخلافة ، وقصر الزهراء ، وكانت أسقف هذه القصور من القراميد المذهبة ، وعمدها من الرخام والمرمر ، وجدرانها مكسوة بلوحات الرخام المذهبة والفسيفساء .

وقد بالغ مؤرخو العرب في وصف روائع تلك القصور وما احتوته من مظاهر الترف والثراء ، مما لا يمكن أن يصدقه العقل ولا المنطق ، غير أن ما أسفرت عنه الحفريات أثبت بصورة قاطعة صدق هذا الوصف ، فكشفت عن قطع من أجل ما أبدعه فن النحت في الرخام والجص والحجر في الأندلس في العصر الوسيط . ولم يتم بناء مدينة الزهراء في عهد عبد الرحمن الناصر ، فأتمها ابنه الحكم المستنصر من بعده عام ٩٧٦ م ، وظلت الزهراء في ازدهار حتى ظهرت مدينة الزاهرة في الوجود ، وهي مدينة بناها المنصور بن أبي عامر سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨)^(٢) غير بعيد من قرطبة ، فأصبحت منافسة للزهراء . . وأقبل عام ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) فكان مؤذناً بالانهيار .

(١) انظر على الأخص كتاب « ففتح الطيب » ج ٢ صفحات ٦٥ - ٦٨ ، ١٠٣ - ١٠٥ ، وابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) بناها محمد بن أبي عامر على نهر قرطبة ، وتوسع في تخطيطها ، وبالف في رفع أسوارها ، فاتسعت المدينة ، وصارت كاملة بعد عامين . وفي سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) انتقل إليها المنصور ، واتخذ فيها الدواوين ، وبني كبار قواده ورجال حاشيته بها عظيم الدور ، وشاهق القصور . وقامت بها الأسواق ، وكثرت الأرفاق . وعطل ابن أبي عامر قصر الخليفة بالزهراء ، وصيره بمغل من سامعه ، وسد باب قصره عليه . وكان لابن أبي عامر بالزاهرة قصر رائع يعرف بالعامرية يفوق قصور الزهراء في عظمتة وجماله ، وخربت الزاهرة بعد وفاة المنصور ، ومضت كأمس الدابر ، وخلت منها الدسوت الملكية والمنابر ، وتلاشى أمرها ، وأضحت قاعاً صيفصفاً .

إذ هاجمتها حشود البربر في ٤ من نوفمبر سنة ١٠١٠ ، واقتحموها عنوة ، وتبع ذلك مذبحه دامية قضوا فيها على حامية المدينة ، وقتلوا الرجال والنساء والأطفال ، ونهبوا الدور والقصور ، وأوعز إليهم سليمان المستعين بإضرار النيران في المدينة ، حتى أصبحت أثراً بعد عين !

صارت الزهراء أكوام خرائب ، وتلال أطلال ، وكانت جدرانها الخربة ما تزال قائمة في عهد الشريف الإدريسي ، ولم يخطئ أحد الكتاب في تسميتها « بومبي العربية »

وقد تنقلت عن روائع هذه المدينة روايات ساقها المؤرخون والجغرافيون العرب والإسبان الذين بهرتهم روائعها الفنية . واجتذبت أكوام الخرائب والارتفاعات التي كانت تضم في أحشائها بقايا قصور الزهراء اهتمام رجال الآثار في العصر الحديث بعد أن ظلت حتى مطلع القرن الماضي محاجر غنية تستخرج منها الأحجار وتيجان الأعمدة لترين دور قرطبة وإشبيلية ، ثم عمد المهندس الأثري فيلاسكيث بوسكو إلى إجراء أول حفائر علمية بها . وكان أول ما أسفر عنه البحث هو الكشف عن الفاصل بين المدرج العلوي والأوسط ، كما أسفرت عن كشف كميات هائلة من الخزف ذي البريق المعدني وقطع كثيرة من الزجاج ، ثم كشف عن آثار أحد تلك القصور ، وظن فيلاسكيث بوسكو أنه قصر الخلافة^(١) على حين ثبت فيما بعد أن ما اكتشفه لا يعدو أن يكون جزءاً من قصر الحكم المستنصر بدليل ما نقرؤه على بعض تيجان الأعمدة .

ثم تتابعت الحفائر العلمية على أيدي كبار رجال الآثار مثل دون فيليث هرناندث ودون رافاييل كاستخون ، فأسفرت عن اكتشاف آثار قصر من قصور الناصر



بعض زخارف الزهراء

تيجان الأعمدة وطونها وقواعدها وبعض اللوحات الحجرية عن فن رفيع في الحفر الغائر في الحجر والرخام ، وينحوا هذا الفن في أسلوبه نحو التقاليد البيزنطية حين ينساب الحفر إلى عمق كبير مما يؤدي إلى إكساب الزخرفة نوعاً من التباين الحاد بين الظل والضوء ، ومعظم التيجان من الطراز الكورنثي والطراز المركب ، وكانت قواعد الأعمدة من الرخام الناصع البياض .

القصور في عصر ملوك الطوائف :

انتشر سلك الخلافة الأموية في ١٠١٠ م ، وتبع ذلك قيام عدد من الدويلات المستقلة في جميع أنحاء الأندلس ، وانتزعي الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالبلاد ، واقتسموا خطتها ، وتغلب بعضهم على

سنة ١٩٤٣^(١) ، وهي آثار غنية بالزخارف المحفورة في الحجر والرخام . وقد نسبت هذه الآثار إلى عبد الرحمن الناصر لوجود اسمه منقوشاً على تاجين صغيرين فيه . وما زالت الحفائر الأثرية جارية حتى وقتنا هذا . وما يزال دون فيليث هرناندث يتابع بحوثه الأثرية وترميماته لقصر الناصر ، فاستطاع أن يعيده إلى صورته الأولى ، كما استطاع أن يكسو جدرانه بالقطع الحجرية التي كانت مدفونة في الأطلال ، بعد أن لصقها فيما بينها مراعيًا في ذلك تناسب الزخارف وتناسقها .

ويمكننا أن نستنتج مما أسفر عنه البحث الأثري أن قصور هذه المدينة نوعان :

الأول - الدار التي تقوم على فراغ مركزي هو الصحن الذي تتوزع حوله كل الغرف ، كما سبق أن عرفنا ذلك في مقالنا السابق^(٢) .

الآخر - هو القصر الذي يتألف من بلاطات متوازية تفصلها فيما بينها أعمدة تقوم عليها عقود كما هو الحال في المساجد الأندلسية^(٣) . وقد اتبع في هذا النوع نظام القصور الفارسية .

كما أسفر البحث الأثري عن كشف الموقع الذي كان يشغله جامع الزهراء ، وأغلب أرضيات المجالس والقاعات التي تتألف منها القصور مكسو بقراميد الآجر المرصعة بالأحجار وقطع الآجر الحمراء في أشكال هندسية غاية في الروعة والجمال ، وتكشف

(١) انظر كاستخون

Rafael Gastejon : Excavaciones del plan nacional en Medina Azahara (cordoba). Campana de 1943, Madrid 1945.

وانظر كذلك مقاله

Nuevas excavaciones en Medina al-Zahara; El Salon de 'Abd er-Rahman III, Al-Andalus, 1945, pp. 147-154.

(٢) « التخطيط والعمران في العصور الإسلامية الوسطى » ، المجلة « العدد التاسع سبتمبر ١٩٥٧ للكاتب .

(٣) Elie Lambert : Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, Al-Andalus, vol. XIV, fasc. 2, 1949. pp. 273-291.

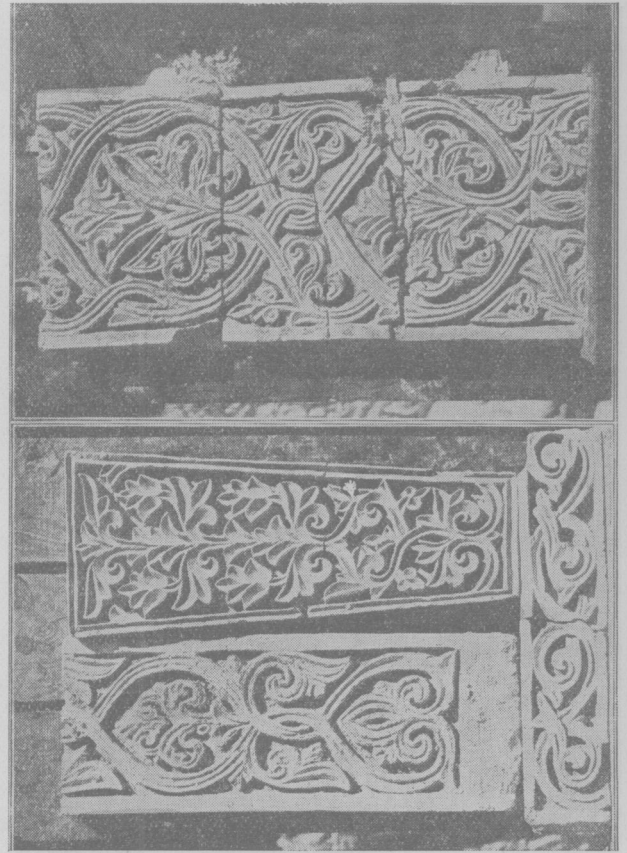
الاسترداد الإسباني زحفاً حثيثاً على حين استغرق ملوك الطوائف في الملاذ ، وعكفوا على اللهو ، واستناموا لحياة الترف ومظاهر الرقة التي كانت تنعم بهما الأندلس في ذلك العهد ، ولاذوا بالجزيات لألفونسو السادس اتقاء لشره ورغبة في خطب سلمه ومرضاته ؛ حتى ظهر يوسف ابن تاشفين أمير المسلمين في المغرب ، وتعلقت آمال الأندلس بنجده بعد أن ضايقهم ألفونسو في طلب الجزية . فعبر ابن تاشفين الزقاق إلى الأندلس ، والتقت جيوشه وجيوش قشتالة في واقعة الزلاقة ، فكانت هزيمة النصارى ، وبداية عصر المرابطين في الأندلس .

وقد بلغ ملوك الطوائف في الترف والرقة الغاية ، وأقاموا القصور السامقة والآثار الجليلة الرائعة ، وقد بالغ المؤرخون العرب في وصفها ، ومن أهمها قصر ابن ذى النون في طليطلة ، وقصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمالقة .

قصر المأمون بن ذى النون بطليطلة :

شيده ملك طليطلة المأمون بن ذى النون (في ٤٥٥ هـ ١٠٦٣ م) ، واتقنه إلى الغاية ، وأنفق عليه أموالاً طائلة ، وصنع في وسطه بحيرة ، وصنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطاً بها ، ويتصل بعضه ببعض ؛ فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصل إليه ، وتوقد فيها الشموع ، فيرى لذلك منظر بديع عجيب .

وقال ابن حيان عن ابن جابر في وصف أحد مجالس هذا القصر وهو مجلس المكرّم : « وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ، وأغرب ما قيّد لحظي من بهي زخرفته الذى كاد يحبس عيني عن الترقى عنه إلى ما فوقه ؛ إزاره



بعض الزخارف النباتية التي كانت تزين سجاجات عقود مدينة الزهراء

بعض ، ثم استقل بأمر هذه البلاد ملوك استفحل أمرهم ، وعظم شأنهم : أمثال بنى عباد بإشبيلية ، وبنى الأفطس ببطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى جهور بقرطبة ، وبنى حبوس بغرناطة .

وكان طبيعياً ، وقد انهار سلطان الخلافة بقرطبة ، أن تلمس العناصر الثقافية والفنية ، التي كانت تزخر بها ، مجالا أنسب لها في ظل هؤلاء الملوك ، وكان نتيجة لذلك أن تألفت في عاصمة كل مملكة من هذه الممالك الصغيرة جماعات فنية حتى لقد اعتبر هذا العصر بحق أزهى عصور الفن الأندلسي بالرغم من التدهور السياسي الذى أخذ يدب في جسم دولة الإسلام بالأندلس ، ويصيب سلطان المسلمين في هذه البلاد ، وزحف

والأشجار بأنقن تصوير وأبدع تقدير»^(١) . وأضاف قائلا :

« ول هذه الدار بحيرتان قد نصت على أركانها صور أسود مصوغة من الذهب الإبريز أحكم صياغة ، تتخيل لتأملها ؛ كالحة الوجوه فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هوناً كرشيئ القطر أو سحالة اللجين ، وقد وضع في قعر كل بحيرة منها حوض بديع يسمى المذبح ، محفور من بديع المرمر ، كبير الحرم ، غريب الشكل ، بديع النقش ، قد أبرزت في جنباته صور حيوان وأطيوار وأشجار»^(٢) ، وينحصر منها في شجرتي فضة عاليتي الأصلين غريبتى الشكل ، محكمتى الصنعة قد غرزت كل شجرة منهما وسط كل مذبح بأدق صناعة ، يترق فيهما الماء من المذبحين ، فينصب من أعالي أفانها انصباب رذاذ المطر أو رشاش التندية ، فتحدث لمخرجه نغمات تصبى النفوس ، ويرتفع بذروتها عمود من الماء ضخيم منضغط الاندفاع ، ينساب من أفواهها ، ويبلل أشخاص أطيوارها وثمارها بألسنة كالمبارد الصقيلة ، يقيد حسنهما الألاحظ الثاقبة ، ويدع الأذهان الحادة كليلة » .

هذا الوصف المعبر الذي ينطق بما كان عليه هذا القصر يجلو لنا ما كان يقوم به المأمون لتجميل قصره ، كما يشير إلى الدور الذي لعبته البحيرات في تجميل القصر ومجالسه ، وقد اندثر هذا القصر ، ولا نعرف عن أمره شيئاً يذكر . على أن بطليطة اليوم آثار قصر يعرف بقصر جاليانا في فحص نهر تاجة ، ويغلب على الظن أنه هو المنية أو القصر الشهير الذي شيده أبو الحسن يحيى المأمون بن ذى النون . وقد نسج المؤرخون الإسبان حول هذا القصر

الرائع الدائر بأسسه حيث دار^(١) ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة ونصاعة التلوين ، قد حُرمت^(٢) في جنباته صور البهائم ، وأطيوار ذات ثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من أفنان أشجار وأشكال الثمر ما بين جاد وعابث ، كما تعلق بعضها ببعض بين ملاعب ومثاقف ، تزنوا إلى من تأملها بألحاظ عاطف كأنها مقبلة عليه أو مشيرة إليه ! وكل صورة منها منفردة عن صاحبها ، متميزة من شكلها ، تكاد تقيد البصر عن التعلل إلى ما فوقها ، قد فصل هذا الإزار^(٣) عما فوقه كتاب^(٤) نقش عريض التقدير ، مخرم محفور ، دائر بالجلس الجليل من داخله ، قد خطه المنقار^(٥) أبين من خط التروير ، قائم الحروف بديع الشكل ، مستبين على البعد ، مرقوم كله بأشعار حسان ، قد تخيرت في أماديع مخترعه المأمون .

وفوق هذا الكتاب الفاصل في هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيوار وصور أنعام وأشجار تذهل الأبواب وتقيد الأبصار . وأرض هذه البحار^(٦) مدحوة من أوراق الذهب الإبريز ، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان

(١) يقصد بذلك الكسوة الرخامية التي تغطي الجزء الأدنى من الجدار .

(٢) يعنى الزخارف الحيوانية التي حفر في هذه الكسوة الرخامية حفراً غائراً عميقاً من شأنه إبراز هذه الأشكال حتى تبدو كالتماثيل . (Haut-relief)

(٣) اشتقت هذه الكلمة من الإزار ، وهو رداء يغطي الجزء الأسفل من الجسم من الوسط حتى نصفي الساقين ، ومنه فعل تآزر أى أحاط بجزام أو نحوه وما زالت هذه اللفظة تستعمل في اللغة الإسبانية بالمعنى الذى أشرنا إليه فهي كسوة من الرخام أو الزليج تغطي الأجزاء الدنيا من الجدران (Alizar)

(٤) إبريز أو طراز من الكتابة يحيط بأعلى الجدار .

(٥) الآلة التي ينقش بها النقاش .

(٦) أفاريز أو طرز أرضيتها مزججة وأنزلت بالذهب .

(١) انظر ابن بسام : « الذخيرة » قسم رابع مجلد أول ص

١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) يشبه هذا الحوض - حوض مدينة الزاهرة الذى عثر عليه

في إشبيلية ، وفيه هذه الزخرفة الحيوانية والنباتية نفسها .



قطعة من افريز كان يزين قصر الجعفرية

وما كادت سرقسطة تقع في أيدي النصارى حتى تحول القصر إلى دير ، ثم إلى حصن استقر فيه ملوك أرغون ، ثم ألحقت به عدة مقصورات دينية نذرت لسان چورج ، ثم أضيف إليه في عهد الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيلا قاعة العرش الرائعة عام ١٤٩٢ . غير أنه ما لبث أن أقيمت فيه محكمة التفتيش بسجونها الرهيبة ، ثم دعمه فيليب الثاني بمعاقل وحفر من حوله خندقاً .

وفي عهد إيزابيلا الثانية تحول إلى معسكر سنة ١٨٦٦ م ، فهدمت المقصورة الكبرى التي شيدها بلدرو الرابع ، وجردت منها زخارفها الإسلامية الرائعة : ويقول جوميث مورينو في ذلك : « إنه عمل بربرى يندى

قصصاً من الفروسية والأساطير ، وتروى هذه القصص أن أميرة مسلمة تدعى جاليانا كانت تعيش فيه ، وبعد مغامرات عجيبة الشأن انتهى بها الأمر إلى أن تتزوج الإمبراطور شارلمان. وقد بقي من هذا القصر جزء مستطيل أقيم في طرفيه طبقتان تؤلفان برجين كبيرين ، وتتكون الطبقة الدنيا من قاعة متوسطة ، وتتخلل جدرانها فتحات. والبناء على الطراز الطليطلي تتناوب فيه صفوف الحجارة وصفوف الآجر ، أما القبوات فتعاضدة ، وقد بقيت بعض عقود نصف دائرية قليلة التجاوز ، وأخرى مفصصة في مداخل الغرف . أما الزخارف فمن نوع المدجن ، وتحمل رنوك أسرة قرمان مما يفسر إلى حد كبير صحة هذه الرواية (١) .

قصر الجعفرية بسرقسطة :

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هود ملوك سرقسطة ، وما إليها ، ومن أشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤمن وولى بعده ابنه المستعين أحمد سنة سقوط طليطلة عام ١٠٨٥ م واستشهد عام ١١٠٩ م بظاهر سرقسطة . وكانت سرقسطة في عهده « جنة الدنيا ، وفتنة الحيا ، ومنتهى الوصف ، وموقف السرور والقصف » (٢) .

وقصر الجعفرية من بناء أبي جعفر أحمد المقتدر بالله عام (١٠٤٧ - ١٠٨١ م) كما يثبت ذلك نقش بأحد تيجان أعمدته . وقد سمي بالجعفرية نسبة إلى كنيته « أبي جعفر » ، وقد كان المقتدر يسميه « مجلس الذهب » وفيه يقول :

قصر السرور ومجلس الذهب
بكما بلغت نهاية الأرب
لو لم يحز ملكي خلافاً
كانت لدى كفاية الطلب ! (٣)

(١) Marqués de Lozoya : Historia del arte Hispanico

t. I, p. 237.

(٢) « نفح الطيب » ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣) المرجع نفسه ١ ص ٤١٧ .

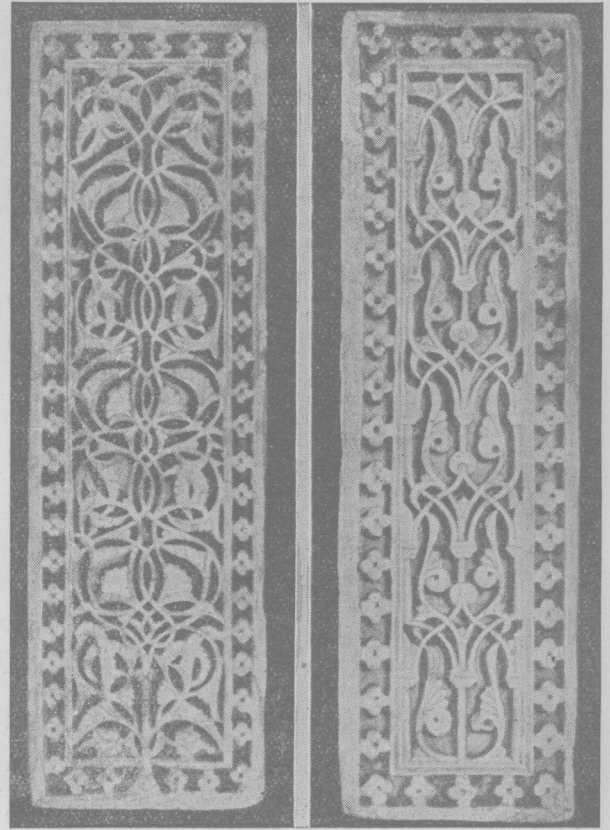
يدعنه تسعة عشر برجاً أسطوانياً الشكل^(١) عدا برج التكريم ، فقد كان مربع الشكل ، بداخله عقود متجاوزة . وفي وسط هذا البناء صحن مستطيل تدور به أروقة جانبية على حين كانت تطل على جانبيه القصيرين مجموعتان من الغرف كل منهما تتألف من قاعة في الوسط وغرفتين جانبيتين ، كما هو الحال في قصور بني نصر بغرناطة وقصور المدجنين^(٢) . وكان بناء هذا القصر من الملاط .

وكان إلى جانب برج التكريم قاعة كبيرة لعلها مجلس الذهب الذي كان يعتز به المقتدر ، وتفتح في جانبيه غرفتان إحداهما يشغلها المسجد الذي ما زال قائماً حتى وقتنا هذا ، وكانت هذه القاعة الكبرى تتصل جنوباً بالصحن . وكان يقابله في الجهة الأخرى قاعة تسمى قاعة الرخام نسبة إلى كثرة أعمدتها الرخامية . وقد كشفت بائكة من العقود الإسلامية كانت تتصل بأسطوان المدخل الرئيسي على أثر هدم جزء من مقصورة سان جورج التي في جنوب قاعة الرخام . وتتألف هذه البائكة من ثلاثة عقود كلها غلو في التعقيد الزخرفي ، وعقودها طبقتان ، إحداهما فوق الأخرى ، والدنيا منهما من عقود مفصصة متقاطعة ، فوقها عقود أخرى تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات . وفيها نشهد اتجاه الفن الأندلسي إذ ذاك إلى الإسراف في التعقيد والغلو في حشد الزخرفة والتوسل بالعقود المتقاطعة التي تظهر فيها التوريقات المتشابكة والتشجيرات المتداخلة .

أما المصلى فبابه مدجن ، أما داخله فمثن الشكل ، وأصله مربع طول ضلعه ٥,٤٦ من المتر تحول إلى مثن بأن أقيمت في أركانه أنصاف حوائط . ويشغل الحراب الركن الجنوبي الشرقي ، وتعلوه قبيبة مفصصة قوقعية

(١) يتشابه هذا القصر في إحاطة الأبراج المستديرة به ، والقصور الإسلامية المنبثقة بالصحراء ما بين سورية والعراق كقصر المشتى والأخضر ، في حين تتشابه تفاصيله المعمارية الداخلية وزخارفه والعناصر المعمارية والزخرفية للفن الخلافي القرطبي .

(٢) هم أهل الدجن أي المسلمون الخاضعون للنصارى .



لوحات جصية من قصر الجعفرية
محفوطة بمتحف سرقسطة

له الجيين ، من أشد النقط سواداً في تاريخ إسبانيا^(١) . ولم يستثن من هذا العمل الهمجي سوى المصلى الذي يؤلف بزخارفه — مع ما يحتويه متحفا سرقسطة ومدريد من تيجان أعمدة وعقود جصية رائعة كل ما بقي من قصر بني هود .

ومن العسير أن نتصور ما كان عليه هذا القصر قبل أن يعتريه هذا التشويه ، ولكن لدينا تصميماً حربياً يصور هذا القصر عام ١٧٥٧ م . وقد استطاع سافيريون أن يقيم على هذا التصميم دراسة علمية هامة .

والقصر على مسافة قصيرة من ربض المدينة على نهر إبرة ، ويتألف من سور مستطيل (٨٠ × ٦٨ م)

Gomez Moreno : Ars Hispaniae, tomo III, p. 221 (١)

& El arte en España e el mogreb, Coleccion Labor, p. 180.

ولا تزال في متحف سرقسطة أشلاء كثيرة من هذا القصر نجهل مكانها منه ، وتألف من ألواح رخامية وشمسيات جصية إن دلت على شيء فعلى مدى ما وصل إليه الفن الإسلامى فى الأندلس من تعقيد رائع يعجز عنه الوصف ، ويعتقد لامبيرث أن قصر الجعفرية هو الأصل الذى حاكاه عرفاء الموحدىن فى إشبيلية ، وبنو نصر فى غرناطة ؛ وفى هذه الأبنية يغلب طابع الضعف ، ويشيع استعمال الزخارف الجصية لقلة الأحجار . كذلك أثر قصر الجعفرية فى عمارت الموحدىن بنى نصر ، من حيث تصميم الصحن المستطيل والمجنبات المحيطة به^(١)

قصر بنى حمود بقصبة مالقة :

كان على بن حمود الحسنى وأخوه قاسم من سلالة إدريس بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة بفاس قد أجازا مع البربر من العدو إلى الأندلس ، وآزرهما البربر ، فلما قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) ، وقتلوا سليمان المستعين ، وقام بالأمر من بعده على بن حمود الذى تلقب بالناصر . ودام له الملك عامين إلى أن قتله صقالبته سنة ١٠١٨ م ، فولى مكانه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون . ونازعه الأمر يحيى بن على بن حمود ، وكان قائماً على سبته ، فأجاز إلى الأندلس سنة ١٠١٩ م واحتل مالقة ، وكان أخوه إدريس والياً عليها منذ عهد أبيه ، فبعث أخاه إلى سبته ، وزحف يحيى إلى قرطبة ، فاستولى عليها سنة ١٠٢١ م ، وتلقب بالمعتلى ، وأخذ يوسع رقعة مملكته ، فاستولى على الجزيرة الخضراء ثم خضع له أهل شريش سنة ١٠٢٥ م وظل قائماً بالحكم حتى هلك عام ١٠٣٧ م ، وخلفه أخوه إدريس بن على ، وضم إليه زندة والمرية ، ولكنه هلك عام ١٠٣٩ م ، وبويع ابنه يحيى ، ولكنه فر إلى قمارش .

الشكل ، ومدخله على شكل عقد متجاوز يشبه عقد جامع قرطبة ، يحيط به إفريز مستطيل ، وفى بنيقته قوحتان ، أما سنجاته فمحشوة بالزخرفة وملساء بالتناوب ، ويزين الجدران السبعة الأخرى عقد أصم شديد التعقيد من النوع الذى تختلط فيه الخطوط والمنحنيات^(١) .

ويحيط به إفريز بارز يتخذ الشكل نفسه ، وتحمل هذه العقود أعمدة ملتصقة فى الجدران ؛ ويجرى بالأجزاء العليا من جدران المصلى طراز زخرفى تعلوه بائكة زخرفية ، تتألف من عقود مزدوجة مفصصة تقوم على أعمدة صغيرة . ويرجح الأستاذ تورى ألبا أستاذ الفنون بجامعة سرقسطة أن هذا المسجد كانت تعلوه قبة قائمة على ضلوع متقاطعة على النحو الذى نراه فى قبة المسجد الجامع بتلمسان .

وليس هذا المسجد — على حد قول أحد مؤرخى الفن الإسبان — بيتاً للصلاة ، « وإنما هو بيت للفن يضم أروع ما أبدعه الفن الأندلسى »^(٢) . أما العقدان المحفوظان اليوم فى متحفى مدريد وسرقسطة فكانا يزينان القاعة الرئيسية . وكانت هذه العقود فيما يظهر أربعة موزعة على الجدران الأربعة للقاعة ، وفيها يستحيل على المرء أن يتقصى امتداد خطوطها ؛ إذ هى تشابك ، وتتداخل فيما بينها بطريقة ساحرة فريدة .

ويحتفظ متحف سرقسطة بمجموعة رائعة من تيجان الأعمدة المرمرية التى تمثل لنا مقدار التطور الذى بلغه الفن الأندلسى بعد أن تحرر مما كان يغلب عليه من تأثيرات سابقة على الإسلام ، ونلمس فى هذه التيجان حرية الأداء التى طبعت هذه التيجان بطابع من الرشاقة وأضفت عليها قواماً أسطوانياً يحمل فى أعلاه رأساً مكعباً . وتكسو هذه التيجان زخارف قوامها ورقة الأكششى . والتوريقات الدقيقة التى حفرت على طبقتين حفرًا غائرًا يبرز هذه الزخارف .

سنجاتها بزخارف رائعة . ويسبق هذه البائكة رواق أعيد بناؤه في عهد بني نصر كما يبدو من أسلوب التيجان ونوع العقود . وتطل هذه القاعة على صحن شأنها في ذلك شأن الجعفرية بسرقسطة ، وإلى غربها بناء مربع طول ضلعه ٢,٥٠ م ، ويقوم في كل واجهة من واجهاته الأربع عقدان متقاطعان ، وينشأ من تقاطعهما عقد جديد يعلوهما على النحو الذي نراه في عقود زيادة الحكم بجامع قرطبة . وهذه العقود جصية ملساء ، أما القاعة نفسها فكان يدور بجدرانها طراز بارز به زخرفة جصية لم يبق منه إلا أجزاء ملتصقة بالجدران .

وعقود المدخل تتألف من سنجات مزخرفة وأخرى عارية من الزخارف بالتناوب ، كما هو الحال في عقود جامع قرطبة بزيادة الحكم . أما زخارف عقود المدخل وعقود الشرفة فجصية متعددة الألوان ، تنتشر فيها التوريقات ، وتظهر بينها مراوح نخيلية طويلة ما تلبث أن تلتف حول نفسها ، وكيزان الصنوبر . وفي باطن هذه العقود لوحات موزعة في امتداد السنجات تحتشد فيها الزخارف الجصية التي تذكر بفن قرطبة ، وتمهد لزخارف قصر الجعفرية .

ثم توالى الأحداث على هذا النحو بين أبناء العم ، وأخذ المعتضد بن عباد ملك إشبيلية ، وقد انتهر الفرصة ، ينتزع من بني حمود المدينة إثر المدينة ، فسقطت أركش ومورور وزندة سنة ١٠٥٣ م ، ثم سقطت في يده الجزيرة الخضراء سنة ١٠٥٥ م واستولى ابنه المعتضد على جيان سنة ١٠٧٤ م ، وما لبثت دولة بني حمود أن انقرضت على أيدي المرابطين .

وقد شغلت الحروب والمنافسات والفتن الداخلية أفراد هذه الأسرة عن العمارة والتشييد . ويبدو أن يحيى بن على هو الذي قام ببناء هذا القصر بقصبة مالقة ، ولم يبق من هذا القصر الذي أضيف إليه في عصر بني نصر سوى قاعة يبلغ طولها ٧,٥٠ من المتر ، وعرضها ٣ أمتار ، وتنتهي جنوباً بشرفة رائعة تطل على البحر ، وتبدو جدرانها من الخارج فقيرة البناء ، ولكن الزخارف التي تكسو أجزائها الداخلية وثيقة الصلة بزخارف قصر الجعفرية .

وعندما بدئت الحفائر في قصبة مالقة سنة ١٩٣٦ م لم يكن في الحسبان اكتشاف مثل هذا الأثر الجليل الذي يرجع إلى القرن الحادى عشر . ومدخل القاعة تزينه بائكة من ثلاثة عقود شديدة التجاوز ، مكسوة

